María Rosa Menocal
The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain
Foreword by Harold Bloom
(Boston, MA: Little, Brown, 2002). xviii, 315 p.

زينة الدنيا: كيف أبدع المسلمون واليهود والمسيحيون ثقافة التسامح في إسبانيا العصور الوسطى

علي محافظة

أستاذ التاريخ في الجامعة الأردنية، عمّان.

يقع هذا الكتاب في ٣١٥ صفحة من الحجم المتوسط، يضاف إليها حديث مع المؤلفة في ١١ صفحة في نهاية الكتاب. ويتألف من ١٨ فصلاً هي مشاهد متباينة من حياة شخصيات سياسية وثقافية بارزة من العرب المسلمين واليهود والمسيحيين من سكان الأندلس، أو من الذين كانت لهم صلة بالأندلس، وعاشوا في الفترة الممتدة من مطلع القرن الثامن الميلادي إلى مطلع القرن السابع عشر الميلادي. وتُبرز هذه المشاهد ثقافة التسامح التي أسسها وعززها الأمويون في الأندلس، وتمتع بها المسلمون واليهود والمسيحيون طوال الحكم العربي الإسلامي، وخلال ثلاثة قرون من الحكم المسيحي الإسباني التي سبقت القضاء على الحكم العربي الإسلامي في الأندلس في سنة ١٤٩٢م. كما تتناول بدايات التعصب والأصولية الدينية عند المسلمين والمسيحيين والتي أفضت إلى قيام محاكم التفتيش في القرن السادس عشر الميلادي، وعمليات التنصير للمسلمين واليهود التي أدت إلى هجرتهم من البلاد، أو القبول بالتنصير القسري.

تقول الكاتبة إنها أخذت عنوان كتابها من الراهبة هروشيا التي أطلقت على الأندلس وعلى مدينة قرطبة عاصمتها «زينة الدنيا». وأن الدافع إلى تأليف الكتاب إعجابها بالأمويين الذين نقلوا إلى أوروبا أول مرة في تاريخها ثقافة التسامح، وحافظوا عليها عدة قرون من الزمن، وتمسك بها أتباع الديانات السماوية الثلاث بعد ذلك حتى القرن السادس عشر. وفي ذيل هذا الكتاب تتحدث المؤلفة عن أحداث ٢٠٠١/٩/١١ وتؤكد أن هذه الهجمات على نيويورك وواشنطن ثمرة عدم التسامح الديني، وأن الأمريكيين، بمن فيهم المؤلفة نفسها، لم يدركوا هذه الحقيقة.

يقارن هارولد بلوم، في تقديمه للكتاب، بين الدمار الذي لحق بحضارة العرب في الأندلس سنة ١٤٩٢على يد الكاثوليك الإسبان والحريق الذي شب في المكتبة الوطنية في سراييفو، عاصمة البوسنة، على

يد المسيحيين الأرثوذكس الصرب سنة ١٩٩٢. ويصف كتاب مينوكال بأنه «قصيدة عشق مهداة إلى شعراء المسلمين واليهود والنصارى الذين عاشوا في إسبانيا في العصور الوسطى. ويقول: إذا كانت مينوكال تمجد الشاعر المحارب اليهودي صموئيل الناجد الذي أبدع في الشعر العربي والعبري على حد سواء، فإنه، أي بلوم، يشيد بابن حزم في **طوق الحمامة**، ويعده من عظماء هذه الحضارة العربية الإسلامية.

أما فصول الكتاب نفسه فتدور حول مشاهد متنوعة من الحياة السياسية والدينية والثقافية في الأندلس. وفي فصل البدايات تتناول مغامرة عبد الرحمن الداخل، الأمير الأموي الذي نجا من المجزرة في الرصافة واجتاز الفيافي والقفار حتى بلغ قرطبة في منتصف القرن الثامن الميلادي. واستحق لقب «صقر قريش»، بعد أن نجح في إقامة إمارة أموية في الأندلس تتبع اسمياً الخلافة العباسية. وتشيد بالأمويين الذين أوجدوا صيغة إسلامية للحوار بين الثقافات في البلاد التي فتحوها أو حكموها. وتذكر أن شبه الجزيرة الأيبرية كانت موحشة ومقفرة مادياً وثقافياً مثل بقية أوروبا حينما جاءها الأمير الأموي. وأنه في ظل التسامح امتزج العرب والبربر والإسبان والقوط الغربيون، وغدت العربية لغة الثقافة والفكر والأدب والعلم للجميع. وأصبحت قرطبة، العاصمة، زينة الدنيا تضم في مطلع القرن العاشر الميلادي ٩٠٠ حمَّام وعشرة آلاف متجر ومئات المساجد، والشوارع المرصوفة والمضاءة ليلاً، و٧٠ مكتبة، أكبرها مكتبة الخليفة التي ضمت أربعمئة ألف مجلد، وبلغت مجلدات فهرسها أربعة وأربعين مجلداً. وكانت المياه العذبة تصل إلى بيوتها بالقساطل الفخارية. أما الورق فله مصنع في ختيفة قرب بلنسية على ساحل البحر المتوسط.

وتُبين المؤلفة بداية التدهور السياسي العربي في الأندلس منذ مطلع القرن الحادي عشر، بانتشار الفتن الداخلية، وتعد تدمير مدينة الزهراء، أجمل ضواحي قرطبة وأفخمها سنة ١٠٠٩م بداية التراجع العربي الذي تكرَّس بسقوط الخلافة الأموية سنة ١٠٣١م، بعد نحو قرن من إعلانها، وبداية عهد ملوك الطوائف، حيث أصبحت كل مدينة وضواحيها مملكة قائمة بذاتها تسيطر عليها أسرة مالكة. وشجع ذلك الممالك المسيحية في الشمال على الاستيلاء على المدن الإسلامية وأطلقوا على سكانها المسلمين «الموديخار» (Mudejar) مثلما أطلق على المسيحيين الإسبان المستعربين «الموزاراب» (Mozarab).

وبعد سقوط الخلافة الأموية بأربعين سنة سقطت جزيرة صقلية بأيدي النورمان ١٠٧٢. واستطاع الفونسو السادس ملك قشتالة وليون أن يستولي على طليطلة سنة ١٠٨٥. عندها استنجد المعتمد بن عباد أمير اشبيلية بالمرابطين في المغرب فاستجابوا لنجدته. واستولوا سنة ١٠٩٠ على إمارات الطوائف واستمروا في السلطة حتى سنة ١١٤٨، وحل محلهم الموحدون منذئذ ولمدة تسعين سنة ونيف. بدأ التعصب الإسلامي في عهد المرابطين الذين أحرقوا كتب أبي حامد الغزالي باعتباره متسامحاً. وبدأ أهل الذمة يغادرون دار الإسلام في إسبانيا. وجاء بعدهم الموحدون الأكثر تشدداً. ورافق ذلك اعتلاء البابا إنوسنت الثالث (١١٩٨م ـ ١٢١٦م) عرش البابوية فوجه حملة إلى الأندلس سنة ١٢١٢ وبذلك بدأت حرب

الاسترداد المسيحية، فسقطت قرطبة سنة ١٢٣٦، وبلنسية سنة ١٢٣٨ واشبيلية سنة ١٢٤٨. وسمح ملوك قشتالة لبني الأحمر بالبقاء في غرناطة حتى سنة ١٤٩٢.

في فصل « قصور للذكرى: المسجد والنخلة، قرطبة ٧٨٦م»، تذكر المؤلفة إنجازات عبد الرحمن الداخل في الأندلس، وبناء الجامع الكبير في قرطبة. وتشير إلى عناية العرب بلغتهم واعتزازهم بتراثهم الأدبي ولاسيما الشعر. وفي فصل «اللغات الأم: قرطبة ٨٥٥م» تقتبس المؤلفة قولاً لبولس الفاروس في كتابه **الإشارة الصائبة** عن المثقفين المسيحيين في منتصف القرن التاسع الميلادي، في حرصهم على إتقان اللغة العربية واستمتاعهم بالشعر العربي والفلسفة العربية، ونفورهم من اللاتينية والأدب اللاتيني. كما ساءه تحول النصارى بالمئات إلى الإسلام. ووجد النصارى واليهود والإسبان في العربية لغة يعبرون فيها عن حاجاتهم وعما يجيش في صدورهم، فهي لغة الأدب والفن والعلم والسياسة والفلسفة.

تمثلت ردة فعل النصارى الإسبان على الإقبال على الإسلام واللغة العربية في موجة من التعصب الاستشهادي سنة ٨٥٥م. إذ أقدم المتعصبون على شتم النبي محمد (ﷺ) علناً ما أدى إلى قطع رؤوسهم على الأشهاد. وبلغ عدد هؤلاء حوالى الخمسين، غير أن هذه الظاهرة اختفت بسرعة. وقد اعتبر المؤرخون الغربيون هؤلاء قديسين لأنهم قاوموا الأسلحة بالقوة.

تقدم المؤلفة في بقية فصول الكتاب ستة من أعلام اليهود في الأندلس منهم: حاسداي بن شبروط، وزير الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث(٩١٢ ـ ٩٦١م)، الذي كان متضلعاً من اللغة العربية، وكان بمثابة وزير للخارجية. فقد أوفده الخليفة على رأس سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي. ومنهم صموئيل بن نجريلا (Nagrila) الذي ينتمي إلى أسرة يهودية ثرية، انتقل من قرطبة إلى غرناطة، وبسبب ثقافته الواسعة وإلمامه باللغة العربية والأدب العربي عين «ناجداً» (Nagid) أي رئيساً على الطائفة اليهودية فيها. وكتب أشعاراً بالعربية والعبرية.وكان له الفضل في انتصار ملك غرناطة باديس على ملك اشبيلية سنة ١٠٤١م.

ومن الأعلام اليهود بطرس الفونسي الذي تحول إلى المسيحية سنة ١١٠٦، وحول اسمه من موسى السفاردي (الإسباني) إلى بطرس الفونسي. هاجر إلى لندن من هيوسكا في مملكة أراغون، وانضم إلى حاشية الملك هنري الأول ابن وليم الفاتح الذي اعتلى عرش إنكلترا سنة ١١٠٠م. وكان بطرس طبيباً وعالماً في الجداول الفلكية والحسابية ومنجماً. واشتهر في لندن بكتابيه **حكايات كهنوتية** *(The Priestly Tales)* **وحوار ضد اليهود** *(Dialogue against the Jews)* الذي اتصف بالتعصب والتشدد.

أما يهودا هاليفي، أحد أعمدة الطائفة اليهودية في الأندلس والشاعر المشهور، فقد ولد في توديلا في شمال إسبانيا سنة ١٠٧٥م وكانت في أيدي المسلمين آنذاك، وخدم ملوك الطوائف والمرابطين. ولما بلغ الرابعة والستين من عمره غادر الأندلس، بعد أن أنهى كتابه **كتاب الخزر**، وجاء إلى الإسكندرية حيث استقبلته الطائفة اليهودية في مصر بالترحاب والتقدير.

ومن اليهود البارزين الذين تناولتهم المؤلفة موسى بن ميمون المولود سنة ١١٣٥م في قرطبة. واضطر إلى مغادرتها

بانتقالها من قبضة المرابطين إلى الموحدين سنة ١١٤٨م. وأقام في ألميريا ثم انتقل إلى فاس سنة ١١٦٠م ثم إلى فلسطين ومصر سنة ١٢٠٤م وربما اعتنق الإسلام في المغرب لتسهيل تنقلاته. وأبرز مؤلفاته كتاب **دليل الحائرين**.

أما آخر هؤلاء الأعلام اليهود فهو موسى الليوني المولود في أفيلا في قشتالة. تثقف بثقافة عصره، فساءه تحول اليهود إلى الإسلام وتأثر من بقي منهم على دينه بالعقلانية العربية، فأقبل على تأليف كتاب في «القبّالة» (الصوفية اليهودية)، وزعم أنه ينقل من كتاب قديم ما كان يبيعه من تأليفه ليهود عصره. وقد أراد أن يكون ما ألفه بديلاً عن التلمود وتفسيره للعهد القديم ومعارضاً لأسلوب «المشنا» المنافس. وسمّى كتابه **كتاب الأشراق: سفرزوهار** كما ترجم كتيب **المعراج** من العربية إلى اللاتينية سنة ١٢٦٤م.

ومن أعلام العرب والمسلمين تذكر المؤلفة معلومات مختصرة عن ابن الخطيب الأندلسي. وتتوسع في الحديث عن ابن حزم (المتوفى سنة ١٠٦٤م) وعن مؤلفاته ولا سيما **طوق الحمامة**.

وتذكر بإيجاز الشاعر ابن حمديس، مثلما تتناول أبا حامد الغزالي، وابن رشد المولود سنة ١١٢٦ في عهد المرابطين، والذي ظهر إنتاجه الفكري في عهد الموحدين، واشتهر بشروحه لمؤلفات أرسطو، وبكتابه **تهافت التهافت** الذي رد فيه على كتاب أبي حامد الغزالي **تهافت الفلاسفة**. وتتوسع المؤلفة في الحديث عن الغزالي وابن رشد وابن سينا وكتابه **القانون**، وأثر هذه المؤلفات العربية في الفكر الأوروبي، حتى إن كتب ابن رشد منع تداولها في باريس، منارة الثقافة الأوروبية، سنة ١٢٧٧م.

وتتناول حياة عبد الرحمن بن خلدون بشيء من التفصيل، وتبرز أهميته كمؤرخ وعالم في الاجتماع ودبلوماسي. وتذكر رحلتيه إلى الأندلس وتأثره بما شاهد خلالهما. وتذكر مؤرخاً عربياً باسم سيد حميد بن انجلي (Cide Hamete Benengeli) مؤلف كتاب **تاريخ دون كيشوت دولامانشا** الذي نشر جزأه الأول ميكيل دوسرفانتس سنة ١٦٠٥م وجزأه الثاني سنة ١٦١٥م، ونال به شهرة واسعة.

في فصل بعنوان «حدائق الذاكرة: مدينة الزهراء ١٠٠٩م» تصف المؤلفة عجائب مدينة الزهراء: قاعة الاستقبال ذات السقف المؤلف من الذهب والفضة الذي يغطي الجوهرة الضخمة المعلقة في وسطها، وبركة الزئبق التي تعكس أشعة الشمس في كل اتجاه، وحديقة الحيوانات التي تحتوي على مختلف أنواع الحيوانات البرية ويحيط بها خندق مائي، ومئات البرك من كل نوع في كل ساحة من ساحاتها، والنافورة المصنوعة من الكهرمان الأسود والأسد المنحوت من الجواهر في وسطها، ناهيكم بالحدائق الملأى بتماثيل البشر والحيوانات. إن هذه المدينة العجيبة تشبه ما جاء في كتاب **ألف ليلة وليلة**. لقد بدأ ببناء هذه المدينة الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث سنة ٩٣٦ أي بعد إعلان الخلافة الأموية بسبع سنوات. وأصبحت مأوىً لخلفاء بني أمية.

وفي فصل بعنوان «رئيس الرهبنة والقرآن: كلوني ١١٤٢م» تتحدث المؤلفة عن بطرس الموقر، رئيس دير كلوني الذي حمى بيتر أبيلارد، الأستاذ المشهور في باريس، الذي اتهم بالهرطقة وأصدر البابا قراراً بحرمانه سنة ١١٤٠. ولما توفي أبيلارد بعد

سنتين أعفاه بطرس من خطاياه، وكان قد جعل منه راهباً بندكتياً حينما لجأ إليه. وأكرمه عند وفاته. وتتناول نفوذ ديركلوني في شبه جزيرة إيبريا بعد استيلاء الفونسو السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥م. وقد حرص الموزاراب، بين القرنين التاسع والحادي عشر،على تلاوة القربان المقدس باللغة العربية. وجاء بطرس الموقر إلى طليطلة سنة ١١٤٢ يبحث عن من يترجم القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية. وشرع بجمع المعلومات عن المؤلفات العربية في مختلف العلوم لترجمتها إلى اللاتينية. وتتوسع المؤلفة في الحديث عن ترجمة الآثار العلمية والفكرية العربية الإسلامية إلى اللاتينية مبينة أثرها في نهضة أوروبا الحديثة. وتتناول دور فردريك الثاني ملك صقلية، الإمبراطور الروماني المقدس، في ميدان الترجمة هذا في القرن الثالث عشر الميلادي.

وتتحدث في فصل «الحمراء: غرناطة ١٤٩٢م» عن سقوط آخر المعاقل العربية ـ الإسلامية في الأندلس بسلام ومن دون إراقة دماء. وكيف استسلم أبو عبد الله الصغير، محمد الحادي عشر، آخر ملوك غرناطة، للملكين الكاثوليكيين فرديناند وإزابيلا في ٢/١/١٤٩٢. كما تتناول بعض مواد اتفاقية الاستسلام التي تمنح المسلمين الحق في ممارسة دينهم بحرية، والتي لم يتم الالتزام بها. وتصف حالة الذل التي عاشها اليهود بعد استسلام آخر ملوك بني الأحمر في غرناطة.

في خاتمة الكتاب تتساءل مينوكال: لماذا تلاشت ثقافة التسامح؟ وكيف تخلى شعب عن ثقافة متجذرة في الأخلاق؟ تعزو المؤلفة التعصب إلى بربر شمال أفريقيا الذين، في رأيها، لم يعرفوا يوماً التطبيق الأندلسي لمفهوم أهل الذمة. كما تعزوه إلى الكنيسة الكاثوليكية خارج إسبانيا التي جاءت بالأفكار الأصولية التطهيرية إلى إيبريا. وبدأت محاكم التفتيش تعبر عن الموجة الجديدة من التعصب ورفض الآخر بل والقضاء عليه.

والخلاصة أن الغاية من تأليف الكتاب بيان التسامح عند العرب المسلمين حتى أصبح ثقافة عامة لسكان الأندلس من مسلمين ويهود ونصارى. وكيف تلاشت هذه الثقافة بعد ستة قرون من الزمن. وأن بالإمكان لثقافة التسامح أن تسود في المجتمعات الحديثة إذا توافر لدى الشعوب وقادتها وعي بأهمية هذه الثقافة وضرورة استمرارها. والحقيقة أن المؤلفة التزمت بالموضوعية وعدم التحيز في المعلومات التي أوردتها في كتابها، وتناولت تاريخ العرب في الأندلس من زاوية ثقافة التسامح التي نشروها في البلاد، والآثار الإيجابية التي أسفرت عنها هذه السياسة في مختلف ميادين الحياة. وقد بالغت إلى حد ما في إبراز دور اليهود في الأندلس، وربما كانت غايتها بيان حالهم في الأندلس، مقارنة، بأحوالهم البائسة في مختلف أنحاء أوروبا آنذاك □